الدرس الخـامس/ إليـاذة الجزائـر: لمفدي زكريـــا

1/ التعـــريف بالكـــــاتب:

ولد **"مفدي زكريا"**بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان يوم الجمعة (12 يونيو1908) **ببني يزقن** ولاية **غرداية**. وفي مسقط رأسه بدأ خطواته العلمية الأولى، أدخله والده الكتاب حيث حفظ جزءا من القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية، والفقه، وعندما بلغ السابعة من عمره صحبه والده معه إلى مدينة **(عنابة)**حيث كانت تجارته، وفيها أتمّ حفظ كتاب الله، ثم ارتأى والده أن يبعث بابنه إلى(**تونس)** وكان ذلك سنة (1922)م، حيث التحق بمدرسة(**السلام القرآنية)**، و(**جامع الزيتونة)**.. وقد لاحظ فيه أساتذته ذكاء ونجابة، وقد أطلق عليه أستاذه(الحطاب بوشناق) لقب(**مفدى)** فأصبح لقبه الأدبي(**مفدى زكريا)**. وهكذا تضافرت أثار كل من البيئة الضيقة التي كان يحيا فيها(مفدى زكريا) وهي **بني يزقن** بمدينة غرداية، والبيئة الواسعة المتمثلة في النشاط السياسي الوطني الذي كانت تعيشه **تونس** آنذاك في توجيه **"**مفدى**"** وجهة وطنية صحيحة،وجعلته ينظر إلى مستقبل الجزائر والوطن العربي من خلال سبيل واحد هو التحرر الكامل من الاستعمار.

وما من شك في أنّ السنوات الدراسية الخمس التي قضاها بتونس ما بين (1922–1927م) هي التي كونته هذا التكوين الأصيل، ووجهت حياته هذا التوجيه الأدبي والسياسي. ومع اندلاع الثورة التحريرية الكبرى(غرة أول نوفمبر 1954) التحق بصفوفها مناضلا، وواكبها بشعره وسجل بطولاتها ووقائعها، ولم يطل به الأمر حتى ألقي عليه القبض(سنة 1956)، فتنقل بين سجن **البرواقية**، وسجن **برباروس**، وفي سنة(1959) أفرج عن مفدى، ففرّ إلى(المغرب) ومنه إلى(تونس). وبتاريخ **(17 أوت 1977م)** انتقل الشاعر إلى رحمة الله إثر سكتة قلبية ونقل جثمانه إلى أرض الوطن (الجزائر) وبالتحديد إلى مسقط رأسه **بميزاب** (غرداية) يغطيه العلم الجزائري الذي كتب الشاعر نشيده بدمه ليرقد مطمئنًا في الأرض التي قضى حياته وهو يهتف بها وينادي بعزتها وكرامتها وتاريخها وعروبتها وإسلامها وسيادتها وحريتها.

2/ ومن مؤلفاتـــــــه المطبـــوعـــــة:

- ديوان اللهب المقدس/ طبع طبعتان: الأولى في بيروت 1961، والطبعة الثانية في الجزائر سنة 1983، خصه الشاعر للثورة الجزائرية.
- ديوان تحت ظلال الزيتون/ نظمه الشاعر لتونس الخضراء، طبع مرة واحدة 1965.

❖ ديوان من وحي الأطلس/ خصه الشاعر للثورة في المغرب الأقصى، طبع مرة واحدة سنة 1976، وقدم له الدكتور(عباس الجراري)، أستاذ الأدب بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس(المغرب).

❖ إلياذة الجزائر/ نظمت في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة(1972م) وبلغ عدد أبياتها 1000 بيت وبيت.

3/ إليـاذة الجـزائـــر/ موضوعها هو**(الجـزائـر)**:

أولا/ طبيعـة الجـزائـر وعمـرانهـا: يستهل الشاعر الإلياذة بحديث ساحر جذاب يوجهه للجزائر متغزلا بجمالها ومحددًا خصالها وسعادتها التي حققت لها الخلود، مازجًا بين خلودها لجمالها الطبيعي وبين خلودها بجهاد أبنائها وبطولتهم:

جزائر يـــا مطلع المعجزات ويـــا حجة الله في الكائنات

ويـــا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمـات

ويـــا لوحة في سجل الخلود تموج بهـا الصور الحالمات

ويـــا صفحة خط فيها البقا بنـــار ونور جهـاد الأباة

ويـــــا للبطولات تغزوا الدنا وتلهمهـا القمـم الخـــالدات

ويـــا تربة تاه فيهـــا الجلال فتـاهت بها القمم الشامخـات

وأهـــوى علـى قدميها الزمـان فأهـوى على قدميها الطغات

بعد ذلك يجيل الشاعر ناظريه في طبيعة الجزائر الممتدة الفسيحة، ويحلق في أجوائها متنقلا بين ربوعها من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى قرية، فمن **حيدرة** و **الأبيار** و**بلكور** إلى **جبال الأطلس** و**تقجدا** و**جرجرا** ومن **بجاية** إلى **سيرتا** و **واد الهوى** و**جبل الوحش**، ومن شرق البلاد إلى غربها **تلمسان** و**وهران** ومن شمالها إلى جنوبها الساحر إلى **تيلغمت** و**ميزاب** ومنابع **البترول** و**الغاز** .. .

ثانيـا/ تاريـخ الجزائـر القـديـــم :

بعد أن طاف الشاعر حول الجزائر، وقدم لنا وجهها الطبيعي الجميل، عاد ليتحدث عنها من جانب التاريخ القديم، وليقدم وجهها الحضاري العريق، فغاص في أعماق التاريخ، متتبعًا مختلف الدول وشتى

الحضارات التي قامت على أرض الجزائر والشخصيات التي كان لها يد في بناء صرحها فذكر **الأمازيغ** والمدن التي أنشأوها والحروب التي قاموا بها ضد جند الرومان الغازين وما خلدوه من مآثر وخصال:

أشرشـــال هلا تذكرت(يوبا) ومن لقبوا عرشك القيصرية

ومــن مصروك فنافست روما وشرفت أقطـــارنا المغربية

لمـــاذا يلقب "يـوبا" بثـــان أمـا حقق السبق في المدنية

وبـــاهى بشرشـال جنة عدن وزان حدائـــقهـــا السندسيـة

ويستعرض فيها الشاعر أمجاد وبطولات الجزائر من خلال عرض أهم شخصياتها كملوك الأمازيغ من **(ماسينيسا)** و(**يوغرطة)** و(**يوبا)** و(**تاركفرناس)** وغيرهم، وبطولاتهم في الدفاع عن بلدهم(الجزائر) ضد الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي.. .

ثم وقف الشاعر طويلا عند الفتح الإسلامي، فشاد بالبطل(عقبة بن نافع) وصوامعه وجوامعه:

وهبنا العروبة جنسًا وديـنًا وأنّا بمـا قد وهبنا رضينـا

إذا كـــان هذا يوحد صفًّا ويجمع شملاً رفعنا جبينـا

وقلنا(كسيلة) كـــان مصيبًا و(كـاهنة) الحـي أعلم منا

فأهلا وسهلا بأبنـــاء عم نزلتـم جزائـرنـا فـاتحينـا

ومرحى(لعقبة) فـي أرضنا ينير الحجى ويشيع اليقينا

ويعلى الصوامع في القيروان ويرفعها للدفـــاع حصـونا

❖ بعدها شرع يتابع **الدول الإسلامية** التي تعاقبت على أرض الجزائر، فأشاد(**بالرستميين)** ونظامهم المعتمد على الشورى الشيء الذي جعل عاصمتهم(**تيهرت)** تغطي بشهرتها(بغداد). بعدها تأتي دولة **(الأغالبة)**، ثم الدولة **(الحمّادية)** وعاصمتها(**القلعة)** بجاية، امتد حكمها من(فاس) إلى(القيروان) وإلى(ورقلة) جنوبا وكانت مستقلة عن الخلافة بالمشرق. ثم ينتقل إلى دولة **(الموحدين)** التي وحدت المغرب العربي تحت إمارة **(المهدي بن تومرت)** والتي نزح إليها الأندلسيون ابتغاء الحماية والأمان.

❖ بعد الدول الإسلامية يتوقف الشاعرعند **(الحملات الصليبية)** التي كانت تتعرض لها الجزائر من قبل

قراصنة اسبانيين وفرنسيين، وبرتغاليين، كما يشير إلى دخول الأتراك الجزائر وإمارتهم عليها، مؤكدا سيادة الجزائر آنذاك وولاءها الجميل للأتراك.

ثالثا/ مقاومة الاستعمار: إنّ المقاومة ضد المحتلين لم تخمد أبدًا فهي ما إن تهدأ في ناحية حتى تندلع في ناحية أخرى، ففي قسنطينة نشطت المقاومة على يد(**أحمد باي**)وفي الغرب بويع (**عبد القادر**) أميرًا للمقاومة :

بلى يا فرنسيس هذا الحمى صنعنا سيادته بالدما

صعدنا نقاوم شرقا وغربا ونجعل أرواحنا سلما

غزا لاموريسيير(أحمد باشا) فقمنا(بسرتا) نصون الحمى

(معسكر) فجرّ عزم الشباب فطاول عملاقها الأنجما

وبويع شاعرها الهاشمي فكان بها القائد الملهما

يصوغ النظام ويبرى الحسام فيقطر ذاك وهذا دما

ثم قاد المقاومة بطل آخر هو (عبد الرحمن بن زيان) قرب بسكرة واستشهد فيها، كما اندلعت آنذاك ثورة (أبي معزة) و(ثورة أبي بغلة) في كل من سطيف وقسنطينة. ثم ظهرت ثورة أخرى في جبال جرجرة تقودها امرأة تسمى(**لاله فاطمة**)، و ظهرت ثورة (أولاد سيدي الشيخ) بقيادة سليمان بن حمزة.

ـ وفي الجنوب كانت ثورة(بن شهرة) و(بوشوشة) وفي الوقت نفسه كان(المقراني) و(بومزراق) ينظمان المقاومة في الشمال، و(ابن الحداد) ينادي إلى الثورة والجهاد.

رابعا/ الثورة المسلحة: هلّت ليلة القدر ساطعة للأنظار، ولعلع صوت الرصاص وانطلقت المدافع تهدّ الظلم والطغيان رافضة أي تفاوض أو منطق غير منطق النار، وكانت الثورة المسلحة:

تأذن ربك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر

وقال له الشعب أمرك ربي وقال له الرّبّ أمرك أمري

ودان القصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكر

ولعلع صوت الرصاص يدوي فعاف اليراع خرافات حبر

وتأبى المدافع صوغ الكلام إذا لم يكن من شواظ وجمر

إذا كانت النار وسيلة الثورة، فإنّ الاتحاد وجمع الصفوف تحت لواء واحد كان أسلوبها وعاصمها من التصدع والإخفاق، كما عاشت أحداثًا تاريخية أثبتت صلابة عودها، منها مؤتمر الصومام الذي كان وثيقة الثورة ودستورها، ومنها حوادث(20 أوت 1955) التي حصد فيها الاستعمار آلافًا من الجزائريين وغيرها من الأحداث... .

خامسا/ الاستقــلال وثــورة البنــاء: بعد هذه الرحلة الشاقة الطويلة تحقق النصر وأطلّت شمس الحرية ساطعة في أفق الجزائر، فكان ذلك إذانًا بخوض معركة أخرى ضد عدو آخر، هو التخلف والفقر والجهل...، وذلك بانتهاج سياسة مستوحاة من واقع الجزائر ومقوماتها، لا من المذاهب المستوردة:

ويطــالعنا بالبشـــــائر يوليو فأنعش كــالعارض المرجحنّ

فقمنـا نشيـد اقتصـــاد البلاد ونعلي المصـانع فيهـا ونبنـي

ورحنـــــا نوفر للكــادحيـن الرغيف الشريــف بعلم وفــن

ويـــزرع فلاحنـــا أرضـــه بذوب الشـرايين لا بـــالتمني

ونصنع مـن صلب واقـعنـــا مذاهبنـــا رافضيـــن التبنـــي

- **القيم الجماليــة في الإليـاذة:** تشمل ذلك الوصف الشاعري لجمال التضاريس الطبيعية، والتغني بأفنانها وغاباتها وبمواقعها الأثرية وبمناطقها السحرية وما يتخلل كل ذلك من خواطر نفسية.
- أمّا **القيم التـاريخيـــة:** فهي تلك الوقفات التاريخية والعوامل الزمنية والمكانية التي صنعت تاريخ الجزائر، كما تتضمن ذكر الأعلام والمعارك والمدن في جانبها التاريخي.
- أمّا**عن القيم الوطنيـــة:** فهي كل تجليات القيم التي تصنع شخصية الجزائر، وهي الإسلام والأمازيغية والعروبة، ومبادئ الدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وآفاق الوحدة المغربية، وحلم تحرير فلسطين المغتصبة، كما تشمل الأخلاق والطباع والمواقف البطولية والفكر ومناهج السياسة والاقتصاد والاجتماع ... .